* قوله: «ويحافظون على الجماعات».

* أي: يحافظ أهل السنة والجماعة على الجماعات؛ أي: على إقامة الجماعة في الصلوات الخمس؛ يحافظون عليها محافظة تامة؛ بحيث إذا سمعوا النداء؛ أجابوا وصلوا مع المسلمين؛ فمن لم يحافظ على الصلوات الخمس؛ فقد فاته من صفات أهل السنة والجماعة ما فاته من هٰذه الجماعات.

* وربما يدخل في الجماعات الاجتماع على الرأي وعدم النزاع فيه؛ فإن هٰذا ما أوصى به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن، فقال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا». رواه البخاري(1).

* * *

* قوله: **«ويدينون بالنصيحة للأمة»**:

* **«يدينون»**؛ أي: يتعبدون لله عز وجل بالنصيحة للأمة، ويعتقدون ذٰلك ديناً.

* والنصح للأمة قد يكون الحامل عليه غير التعبد لله؛ فقد يكون الحامل عليه الغيرة، وقد يكون الحامل عليه الخوف من العقوبات، وقد يكون الحامل عليه أن يتخلق بالأخلاق الفاضلة

---

(1) رواه: البخاري (٤٣٤١، ٤٣٤٢)، ومسلم (١٧٣٣)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

التي يريد بها نفع المسلمين... إلى غير ذٰلك من الأسباب.

* لٰكن هٰؤلاء ينصحون للأمة طاعة لله تعالى وتديناً له؛ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث تميم بن أوس الداري: «الدين النصيحة، الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[(١)].

ـ فالنصيحة لله صدق الطلب في الوصول إليه.

ـ والنصيحة للرسول عليه الصلاة والسلام صدق الاتباع له، ويستلزم ذٰلك الذود عن دين الله عز وجل، الذي جاء به رسوله ﷺ، ولهٰذا قال: «ولكتابه».

ـ فينصح للقرآن ببيان أنه كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق، وأنه يجب تصديق خبره وامتثال أحكامه، وهو كذٰلك يعتقده في نفسه.

ـ وأئمة المسلمين كل من ولاه الله أمراً من أمور المسلمين؛ فهو إمام في ذٰلك الأمر؛ فهناك إمام عام كرئيس الدولة، وهناك إمام خاص؛ كالأمير والوزير والمدير والرئيس وأئمة المساجد وغيرهم.

ـ وعامتهم؛ يعني: عامة المسلمين، وهم التابعون للأئمة.

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

ـ ومن أعظم أئمة المسلمين العلماء، والنصيحة لعلماء المسلمين هي نشر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، والحرص على إصابتهم الصواب؛ بحيث يرشدهم إذا أخطؤوا، ويبين لهم الخطأ على وجه لا يخدش كرامتهم، ولا يحط من قدرهم؛ لأن تخطئة العلماء على وجه يحط من قدرهم ضرر على عموم الإسلام؛ لأن العامة إذا رأوا العلماء يضلل بعضهم بعضاً؛ سقطوا من أعينهم، وقالوا: كل هٰؤلاء راد ومردود عليه؛ فلا ندري من الصواب معه! فلا يأخذون بقول أي واحد منهم، لٰكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضاً، وصار كل واحد يرشد أخاه سرّاً إذا أخطأ، ويعلن للناس القول الصحيح؛ فإن هٰذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين.

* وقول المؤلف: «**للأمة**»: يشمل الأئمة والعامة؛ فأهل السنة والجماعة يدينون بالنصيحة للأمة؛ أئمتهم وعامتهم.

وكان مما يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه: «والنصح لكل مسلم»[١].

* فإذا قال قائل: ما هو ميزان النصيحة للأمة؟

فالميزان هو ما أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام؛ بقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢]؛ فإذا عاملت

(١) رواه: البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦)؛ عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)؛ عن أنس رضي الله عنه.

الناس هٰذه المعاملة؛ فهٰذا هو تمام النصيحة.

فقبل أن تعامل صاحبك بنوع من المعاملة فكر؛ هل ترضى أن يعاملك شخص بها؟ فإن كنت لا ترضى؛ فلا تعامله!!

* * *

* قوله: «**ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه**[1] ».

* شبه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم المؤمن لأخيه المؤمن بالبنيان الذي يشد بعضه بعضاً، حتى يكون بناء محكماً متماسكاً يشد بعضه بعضاً، ويقوى به، ثم قرب هٰذا وأكده، فشبك بين أصابعه.

فالأصابع المتفرقة فيها ضعف؛ فإذا اشتبكت؛ قوّى بعضها بعضاً؛ فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً؛ فالبنيان يمسك بعضه بعضاً، كذٰلك المؤمن مع أخيه إذا صار في أخيه نقص؛ فإن هٰذا يكمله؛ فهو مرآة أخيه إذا وجد فيه النقص؛ كمله إذا احتاج أخوه؛ ساعده، إذا مرض أخوه؛ عاده... وهٰكذا في كل الأحوال.

* فأهل السنة والجماعة يعتقدون هٰذا المعنى ويطبقونه عملاً.

---

(١) البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥)؛ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

* قوله: «**وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر**»[1]».

* «**قوله**» هنا معطوف على «قوله» في الحديث السابق.

* «**مثل المؤمنين في توادهم**»؛ أي: مودة بعضهم بعضاً.

* «**وتراحمهم**»: رحمة بعضهم بعضاً.

* «**وتعاطفهم**»: عطف بعضهم على بعض.

* «**كالجسد الواحد**»؛ أي: أنهم يشتركون في الآمال والآلام، فيرحم بعضهم بعضاً، فإذا احتاج؛ أزال حاجته، ويعطف بعضهم على بعض باللين والرفق وغير ذٰلك... ويود بعضهم بعضاً، حتى إن الواحد منهم إذا رأى في قلبه بغضاء لأحد من إخوانه المسلمين؛ حاول أن يزيله وأن يذكر من محاسنه ما يوجب زوال هٰذه البغضاء.

فالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، ولو من أصغر الأعضاء؛ تداعى له سائر الجسد؛ فإذا أوجعك أصبعك الخنصر الذي هو من أصغر الأعضاء؛ فإن الجسد كله يتألم... إذا أوجعتك الأذن؛ تألم الجسد كله... وإذا أوجعتك العين؛ تألم الجسد كله... وغير ذٰلك؛

---

(١) البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)؛ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فهٰذا المثل الذي ضربه النبي عليه الصلاة والسلام مثل مصور للمعنى ومقرب له غاية التقريب.

* * *

* قوله: «**ويأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضى بمر القضاء**»:

* «**يأمرون**»: قد يقال: إن هٰذه الكلمة تشمل أمر نفوسهم؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]؛ فهم يأمرون حتى أنفسهم.

* «**بالصبر عند البلاء**»: الصبر: هو تحمل البلاء، وحبس النفس عن التسخط بالقلب أو اللسان أو الجوارح.

والبلاء: المصيبة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦].

فالصبر يكون عند البلاء، وأفضله وأعلاه الصبر عند الصدمة الأولى، وهٰذا عنوان الصبر الحقيقي؛ كما قاله النبي ﷺ للمرأة التي مر بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١)، أما بعد أن تبرد

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦)؛ عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

الصدمة؛ فإن الصبر يكون سهلاً، ولا ينال به كمال الصبر.

* فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء، وما من إنسان؛ إلا يبتلى إما في نفسه وإما في أهله، وإما في ماله، وإما في صحبه، وإما في بلده، وإما في المسلمين عامة. ويكون ذٰلك إما في الدنيا وإما في الدين، والمصيبة في الدين أعظم بكثير من المصيبة في الدنيا.

* فأهل السنة والجماعة يأمرون بالصبر عند البلاء في الأمرين:

ـ فأما الصبر على بلاء الدنيا؛ فأن يتحمل المصيبة كما سبق.

ـ وأما الصبر على بلاء الدين؛ فأن يثبت على دينه، ولا يتزعزع عنه، ولا يكن كمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

* «**ويأمرون**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* «**الشكر عند الرخاء**»: الرخاء: سعة في العيش، والأمن في الوطن، فيأمرون عند ذٰلك بالشكر.

* وأيهما أشق: الصبر على البلاء، أو الشكر عند الرخاء؟

اختلف العلماء في ذٰلك؛ فقال بعضهم: إن الصبر على البلاء أشق، وقال آخرون: الشكر عند الرخاء أشق.

والصواب أن لكل واحد آفته ومشقته؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

لكن كل منهما قد يهونه بعض التفكير: فالمصاب إذا فكر وقال: إن جزعي لا يرد المصيبة ولا يرفعها؛ فإما أن أصبر صبر الكرام، وإما أن أسلو سلو البهائم، فهان عليه الصبر، وكذٰلك الذي في رخاء ورغد.

* لٰكن أهل السنة والجماعة يأمرون بهٰذا وهٰذا؛ بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

* «**ويأمرون**»؛ أي: أهل السنة والجماعة.

* «**بالرضى بمر القضاء**»: الرضى أعلى من الصبر. ومر القضاء: هو ما لا يلائم طبيعة الإنسان، ولهٰذا عبر عنه بـ«المر».

* فإذا قضى الله قضاء لا يلائم طبيعة البشر، وتأذى به؛ سمي ذٰلك مر القضاء؛ فهو ليس لذيذاً ولا حلواً، بل هو مر؛ فهم يأمرون بالرضى بمر القضاء.

* واعلم أن مر القضاء لنا فيه نظران:

النظر الأول: باعتباره فعلاً واقعاً من الله.

والنظر الثاني: باعتباره مفعولاً له.

فباعتبار كونه فعلاً من الله يجب علينا أن نرضى به، وألا

نعترض على ربنا به؛ لأن هٰذا من تمام الرضى بالله رباً.

وأما باعتباره مفعولاً له؛ فهٰذا يسن الرضى به، ويجب الصبر عليه.

* فالمرض باعتبار كون الله قدره الرضى به واجب، وباعتبار المرض نفسه يسن الرضى به، وأما الصبر عليه؛ فهو واجب، والشكر عليه مستحب.

* ولهٰذا نقول: المصابون لهم تجاه المصائب أربعة مقامات: المقام الأول: السخط، والثاني: الصبر، والثالث: الرضى، والرابع: الشكر.

فأما **السخط**؛ فحرام، بل هو من كبائر الذنوب؛ مثل أن يلطم خده، أو ينتف شعره، أو يشق ثوبه، أو يقول: وا ثبوراه! أو يدعو على نفسه بالهلاك وغير ذٰلك مما يدل على السخط؛ قال النبي ﷺ: «ليس منا من شق الجيوب ولطم الخدود ودعا بدعوى الجاهلية»(١).

الثاني: **الصبر**: بأن يحبس نفسه قلباً ولساناً وجوارح عن التسخط؛ فهٰذا واجب.

الثالث: **الرضى**: والفرق بينه وبين الصبر: أن الصابر يتجرع المر، لٰكن لا يستطيع أن يتسخط؛ إلا أن هٰذا الشيء في نفسه

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٨)، ومسلم (١٠٣)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

صعب ومر، ويتمثل بقول الشاعر:

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذاقَتُهُ   لَكِنْ عَواقِبُهُ أَحْلى مِنَ العَسَلِ

لٰكن الراضي لا يذوق هٰذا مرّاً، بل هو مطمئن، وكأن هٰذا الشيء الذي أصابه لا شيء.

وجمهور العلماء على أن الرضى بالمَقْضِي مستحب.

وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الصحيح.

الرابع: الشكر: وهو أن يقول بلسانه وحاله:

«الحمد لله»، ويرى أن هٰذه المصيبة نعمة.

* لٰكن؛ هٰذا المقام؛ قد يقول قائل: كيف يكون؟!

فنقول: يكون لمن وفقه الله تعالى:

فأولاً: لأنه إذا علم أن هٰذه المصيبة كفارة للذنب، وأن العقوبة على الذنب في الدنيا أهون من تأخير العقوبة في الآخرة؛ صارت هٰذه المصيبة عنده نعمة يشكر الله عليها.

وثانياً: أن هٰذه المصيبة إذا صبر عليها؛ أثيب؛ لقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فيشكر الله على هٰذه المصيبة الموجبة للأجر.

وثالثاً: أن الصبر من المقامات العالية عند أرباب السلوك، لا

ينال إلا بوجود أسبابه، فيشكر الله على نيل هٰذا المقام.

* ويُذْكَر أن بعض العابدات أصيبت في أصبعها، فشكرت الله، فقيل لها في ذٰلك، فقالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها.

* فأهل السنة والجماعة رحمهم الله يأمرون بالصبر على البلاء والشكر عند الرخاء والرضى بمر القضاء.

تتمة:

القضاء يطلق على معنيين:

أحدهما: حكم الله تعالى الذي هو قضاؤه ووصفه؛ فهٰذا يجب الرضى به بكل حال، سواء كان قضاء دينيّاً أم قضاء كونيّاً؛ لأنه حكم الله تعالى، ومن تمام الرضى بربوبيته.

ـ فمثال القضاء الديني قضاؤه بالوجوب والتحريم والحل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ـ ومثال القضاء الكوني: قضاؤه بالرخاء والشدة والغنى والفقر والصلاح والفساد والحياة والموت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤].

المعنى الثاني: المقضي، وهو نوعان:

الأول: المقضي شرعاً، فيجب الرضى به وقبوله، فيفعل

المأمور به، ويترك المنهي عنه، ويتمتع بالحلال.

والنوع الثاني: المقضي كوناً:

ـ فإن كان من فعل الله؛ كالفقر والمرض والجدب والهلاك ونحو ذٰلك؛ فقد تقدم أن الرضى به سنة، لا واجب، على القول الصحيح.

ـ وإن كان من فعل العبد؛ جرت فيه الأحكام الخمسة؛ فالرضى بالواجب واجب، وبالمندوب مندوب، وبالمباح مباح، وبالمكروه مكروه، وبالحرام حرام.

* * *

* قوله: «**ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال**»:

* «**مكارم الأخلاق**»؛ أي: أطايبها، والكريم من كل شيء هو الطيب منه بحسب ذٰلك الشيء منه قول الرسول ﷺ لمعاذ: «إياك وكرائم أموالهم»[1]؛ حين أمره بأخذ الزكاة من أهل اليمن.

* والأخلاق: جمع خلق، وهو الصورة الباطنة في الإنسان؛ يعني: السجايا والطبائع؛ فهم يدعون إلى أن يكون الإنسان سريرته كريمة؛ فيحب الكرم والشجاعة والتحمل من الناس والصبر، وأن يلاقي الناس بوجه طلق وصدر منشرح ونفس مطمئنة؛ كل هٰذه من مكارم الأخلاق.

(١) رواه: البخاري (٤٣٤٧)، ومسلم (١٩)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

* وأما «**محاسن الأعمال**»؛ فهي مما يتعلق بالجوارح، ويشمل الأعمال التعبدية والأعمال غير التعبدية؛ مثل البيع والشراء والإجارة؛ حيث يدعون الناس إلى الصدق والنصح في الأعمال كلها، وإلى تجنب الكذب والخيانة، وإذا كانوا يدعون الناس إلى ذٰلك؛ فهم بفعله أولى.

* قوله: «**ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»**[(١)].

* هٰذا الحديث ينبغي أن يكون دائماً نصب عيني المؤمن؛ فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً مع الله ومع عباد الله.

ـ أما حسن الخلق مع الله؛ فأن تتلقى أوامره بالقبول والإذعان والانشراح وعدم الملل والضجر، وأن تتلقى أحكامه الكونية بالصبر والرضى وما أشبه ذٰلك.

ـ أما حسن الخلق مع الخَلْق؛ فقيل: هو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه.

بذل الندى؛ يعني: الكرم، وليس خاصّاً بالمال، بل بالمال والجاه والنفس، وكل هٰذا من بذل الندى.

وطلاقة الوجه ضده العبوس.

---

(١) رواه: أحمد (٢/ ٢٥٠)، والترمذي (٢٦١٢)، وأبو داود (٤٦٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣)، وابن حبان (٢/ ٢٢٧)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث حسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤).

وكذٰلك كف الأذى بأن لا يؤذي أحداً لا بالقول ولا بالفعل.

* * *

* قوله: «**ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك**»:

* «**يندبون**»؛ أي: يدعون.

* «**أن تصل من قطعك**»: من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك، إذا قطعوك؛ فصلهم، لا تقل: من وصلني؛ وصلته! فإن هٰذا ليس بصلة؛ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس الواصل بالمكافىء، إنما الواصل من إذا قطعت رحمه؛ وصلها»[1]؛ فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه؛ وصلها.

وسأل النبي ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله! إن لي أقارب؛ أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي! فقال النبي ﷺ: «إن كنت كما قلت؛ فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذٰلك»[2].

«تسفهم الملّ»؛ أي: كأنما تضع التراب أو الرماد الحار في أفواههم.

* فأهل السنة يندبون إلى أن تصل من قطعك، وأن تصل من وصلك بالأولى؛ لأن من وصلك وهو قريب؛ صار له حقان: حق

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

القرابة، وحق المكافأة؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «من صنع إليكم معروفاً؛ فكافئوه»[1].

* «**وتعطي من حرمك**»؛ أي: من منعك، ولا تقل: منعني؛ فلا أعطيه.

* «**وتعفو عمن ظلمك**»؛ أي: من انتقصك حقك: إما بالعدوان، وإما بعدم القيام بالواجب.

* والظلم يدور على أمرين: اعتداء وجحود: إما أن يعتدى عليك بالضرب وأخذ المال وهتك العرض، وإما أن يجحدك فيمنعك حقك.

وكمال الإنسان أن يعفو عمن ظلمه.

* ولٰكن العفو إنما يكون عند القدرة على الانتقام، فأنت تعفو مع قدرتك على الانتقام.

أولاً: رجاء لمغفرة الله عز وجل ورحمته؛ فإن من عفا وأصلح؛ فأجره على الله.

ثانياً: لإصلاح الود بينك وبين صاحبك؛ لأنك إذا قابلت إساءته بإساءة؛ استمرت الإساءة بينكما، وإذا قابلت إساءته بإحسان؛ عاد إلى الإحسان إليك، وخجل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٩٠).

﴿أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة، لٰكن بشرط أن يكون العفو إصلاحاً؛ فإن تضمن العفو إساءة؛ فإنهم لا يندبون إلى ذٰلك؛ لأن الله اشترط، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ أي: كان في عفوه إصلاح، أما من كان في عفوه إساءة، أو كان سبباً للإساءة؛ فهنا نقول: لا تعف! مثل أن يعفو عن مجرم، ويكون عفوه هٰذا سبباً لاستمرار هٰذا المجرم في إجرامه؛ فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذ.

* * *

* قوله: «**ويأمرون ببر الوالدين**»: وذٰلك لعظم حقهما.

* ولم يجعل الله لأحد حقّاً يلي حقه وحق رسوله إلا للوالدين، فقال: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وحق الرسول في ضمن الأمر بعبادة الله؛ لأنه لا تتحقق العبادة حتى يقوم بحق الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بمحبته واتباع سبيله، ولهٰذا كان داخلاً في قوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾، وكيف يعبد الله إلا من طريق الرسول ﷺ؟!

وإذا عبد الله على مقتضى شريعة الرسول؛ فقد أدى حقه.

ثم يلي ذٰلك حق الوالدين؛ فالوالدان تعبا على الولد، ولا سيما الأم، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ

كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وفي آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، والأم تتعب في الحمل، وعند الوضع، وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له، ولهٰذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر، حتى من الأب.

قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». ثم قال في الرابعة: «ثم أبوك»(١).

والأب أيضاً يتعب في أولاده، ويضجر بضجرهم، ويفرح لفرحهم، ويسعى بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم، يضرب الفيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده.

فكل من الأم والأب له حق؛ مهما عملت من العمل؛ لن تقضي حقهما، ولهٰذا قال الله عز وجل: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]؛ فحقهم سابق؛ حيث ربياك صغيراً حين لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرّاً؛ فواجبهما البر.

* والبر فرض عين بالإجماع على كل واحد من الناس، ولهٰذا قدمه النبي ﷺ على الجهاد في سبيل الله؛ كما في حديث ابن مسعود؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي العمل أحب إلى الله؟

---

(١) رواه: البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»(١).

* والوالدان هما الأب والأم، أما الجد والجدة؛ فلهما بر، لٰكنه لا يساوي بر الأم والأب؛ لأن الجد والجدة لم يحصل لهما ما حصل للأم والأب من التعب والرعاية والملاحظة؛ فكان برهما واجباً من باب الصلة، لٰكن هما أحق الأقارب بالصلة، أما البر؛ فإنه للأم والأب.

* لٰكن؛ ما معنى البر؟

البر: إيصال الخير بقدر ما تستطيع، وكف الشر.

إيصال الخير بالمال، إيصال الخير بالخدمة، إيصال الخير بإدخال السرور عليهما؛ من طلاقة الوجه، وحسن المقال والفعال، وبكل ما فيه راحتهما.

* ولهٰذا كان القول الراجح وجوب خدمة الأب والأم على الأولاد، إذا لم يحصل على الولد ضرر، فإن كان عليه ضرر؛ لم يجب عليه خدمتهما، اللهم إلا عند الضرورة.

ولهٰذا نقول: إن طاعتهما واجبة فيما فيه نفع لهما ولا ضرر على الولد فيه، أما ما فيه ضرر عليه، سواء كان ضرراً دينيّاً؛ كأن يأمراه بترك واجب أو فعل محرم؛ فإنه لا طاعة لهما في ذٰلك، أو كان ضرراً بدنيّاً؛ فلا يجب عليه طاعتهما. أما المال؛ فيجب عليه

---

(١) رواه: البخاري (٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أن يبرهما ببذله، ولو كثر، إذا لم يكن عليه ضرر، ولم تتعلق به حاجته، والأب خاصة له أن يأخذ من مال ولده ما شاء، ما لم يضر.

* وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم؛ وجدنا كثيراً منهم لا يبر بوالديه، بل هو عاق؛ تجده يحسن إلى أصحابه، ولا يمل الجلوس معهم، لٰكن لو يجلس إلى أبيه أو أمه ساعة من نهار؛ لوجدته متململاً، كأنما هو على الجمر؛ فهٰذا ليس ببار، بل البار من ينشرح صدره لأمه وأبيه ويخدمهما على أهداب عينيه، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل ما يستطيع.

وكما قالت العامة: «البر أسْلاف»؛ فإن البر مع كونه يحصل به البار على ثواب عظيم في الآخرة؛ فإنه يجازى به في الدنيا. فالبر والعقوق كما يقول العوام: «أسلاف»، أقراض؛ تستوفى، إن قدمت البر؛ برك أولادك، وإن قدمت العقوق؛ عقك أولادك . . .

وهنا حكايات كثيرة في أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده، وكذٰلك العقوق فيه حكايات تدل على أن الإنسان عقه أولاده كما عق هو آباءه.

فأهل السنة والجماعة يأمرون ببر الوالدين.

* * *

* **وكذٰلك يأمرون بصلة الأرحام.**

* ففرق بين الوالدين والأقارب الآخرين، الأقارب لهم

الصلة، والوالدان لهما البر، والبر أعلى من الصلة؛ لأن البر كثرة الخير والإحسان، لٰكن الصلة ألا يقطع، ولهٰذا يقال في تارك البر: إنه عاق، ويقال فيمن لم يصل: إنه قاطع!

* فصلة الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة.

قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة قاطع»[١]؛ أي: قاطع رحم.

* والصلة جاءت في القرآن والسنة مطلقة.

وَكُلُّ مَا أَتَى وَلَمْ يُحَدَّدِ بِالشَّرْعِ كَالحِرْزِ فَبِالعُرْفِ احْدُدِ[٢]

وعلى هٰذا؛ يرجع إلى العرف فيها؛ فما سماه الناس صلة؛ فهو صلة، وما سماه قطيعة؛ فهو قطيعة، وهٰذه تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة والأمم.

ـ إذا كان الناس في حالة فقر، وأنت غني، وأقاربك فقراء؛ فصلتهم أن تعطيهم بقدر حالك.

---

(١) رواه: البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦)؛ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) من منظومة الشيخ حفظه الله في أصول الفقه، انظر «مجلة الحكمة» العدد (١).

ـ وإذا كان الناس أغنياء، وكلهم في خير؛ فيمكن أن الذهاب إلى أقاربك في الصباح أو المساء يعد صلة.

* وفي زماننا هٰذا الصلة بين الناس قليلة، وذٰلك لانشغال الناس في حوائجهم، وانشغال بعضهم عن بعض، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم، وكيف أولادهم، وترى مشاكلهم، ولٰكن هٰذه مع الأسف مفقودة؛ كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس.

* * *

* قوله: «**وحسن الجوار**»:

* أي: ويأمرون؛ يعني: أهل السنة والجماعة بحسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب في المنزل، وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام:

قال الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]، فأوصى الله بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد.

وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم جاره»[(١)].

وقال: «إذا طبخت مرقة؛ فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك».

وقال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه

(١) رواه: البخاري (٦١٣٥)، ومسلم (٤٨)؛ عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.